

زكى المحاسنى أو اخاء ربع قرن

للاديب الكبير الاستاذ وديع
فلسطين - مصر
الصدىق الصدوق لأدباء العالم العربى

إن فقدت الضاد بوفاة زكى المحاسنى علماً من أعلامها وإن
خسرت فيه المنابر قطباً من اقدر المرئجلين من خطبائها وإن تفقدته
الجامعات أستاذا ومحاضرا من المدودين، وإن تجهم الشعر لغيابه،
وإن غاب وجهه الصبوح عن مجامع اللغة والأدب عضوا فيها،
فخسارتى فى المحاسنى خسارة عمر فى الاخاء والوفاء.

عرفت المحاسنى أول ما عرفته يوم كان يتهبأ للظفر بأعلى
الدرجات العلمية الجامعية من مصر، وكانت يومذاك فى صحبته
رفيقة عمره ونجىة قلبه زوجته وداد سكاكينى الذائعة الصيت فى
عالم الأدب - تغشى معه منتديات القاهرة المزدهرة، وحفول الأدب

والفكر فيها وقواعدها منصوبة على مدار العام، فان توجهت الى نقابة الصحفيين للاصغاء الى محاضرة لابراهيم عبد القادر المازنى أو محمود عزمى ألفت هناك المحاسنى وزوجته، وان سارعت الى محاضرة للدكتور هيكل باشا فى نادى الخريجين من جامعات أوربة كان زكى ووداد فى مقدمة الحاضرين، وان مضيت الى جامعة القاهرة للاستماع الى محاضرات مصطفى عبد الرزاق أو أحمد أمين أو أحمد الشايب أو الدكتور محمد كامل حسين فالمحاسنى وقرينته أول الحاضرين وآخر المنصرفين إذ كانا يلتقيان بنخبة الجامعيين والأدباء المفكرين، وان جئت المجمع العلمى للثقافة المصرية فى موسم للمحاضرات العلمية لقيت هناك المحاسنى ووداداً مستمعين، ولا أكاد أذكر منتدى من منتديات القاهرة التى كانت فى ذلك الحين وقبل الخمسين تموج بنهضة الفكر والأدب وحيوية الثقافة والجدل والمناظرة بين أعلام المحاضرين من المصريين والمستشرقين إلا ذكرت بين الحاضرين هذين القطبين اللذين ما كانت تفوتهما سانحة من سوانح الحياة الفكرية الخصبة المتجددة ولاهما يفترقان حتى فى نادى سيدات القاهرة وحتى فى جمعيات الشبيبة الاسلامية، والمسيحية على حد سواء.

وما أحسب عربياً من غير مصر مقيماً أو عابراً أو متردداً، وقف على دقائق الحياة الأدبية والاجتماعية فى مصر كما وقف عليها هذان الزوجان. وكان طبيعياً أن يجرى بيننا التعارف والتلاقى فى هذه المجتمعات، فكلنا طلاب علم وأكثرنا عشاق أدب وفن ولغة،

وكلنا كنا نتنشق عبير الحرية الفكرية فى عصر هو بحق أزهى عصور النهضة الثقافية فى بلاد العرب، وكنا نواقين للالتقاء بأكبر القيم الفكرية فى اجواء قلّ نظيرها وعياً وتطوراً وانفتاحاً على الشرق والغرب، ومسايرة لتيارات العلم والمعرفة والحضارة فى أمصار الدنيا.

ولقد كان المحاسنى الأديب ومعلم الأدب حفيماً بى، ففتح لى صدره وقلبه، وإذا نحن أخوان صفيان وصديقان صادقان وإذا ببيت كل منا مفتوح للآخر نتلاقى على فكرة أو مائدة أو زيارة مختارة ما بين مصر الجديدة والجيزة أو «الروضة» حيث أثر السكنى.

أما دار «المقتطف» شيخة المجالات التى كنت أعمل فيها يومذاك فكانت قبلة العلماء والأدباء من ديار الضاد ولا سيما فى ندوة الجمعة حيث تتلقى الأفكار والآراء على اختلاف مذاهبها ووسائل التعبير عنها وكان المحاسنى وزوجه زينة تلك الندوة بما أوتى كل منهما من أدب ولباقة وإخلاص عرفا بهذه المزايا واستفاض لهما ذكر بين ذوى الأقلام فى مصر وبين أعلام الضاد من مختلف الأقطار والأمصار، وكان المحاسنى يمازحنى بقوله: لا تدع شيخوخة «المقتطف» تمدو على شبابك! وإن كانت هذه الجملة الجليلة مشت فى خطاها مع الزمان فى تطور الفكر والثقافة العلمية التى حققتها فى موضوعاتها ورسالتها.

ولئن عرف المحاسنى وزوجه كيف «يكتشفان» حياة الفكر والأدب والفن فيما صورت القاهرة فى ندواتها ومحاضراتها من هذه

الحياة التي ضجعت بجدل النقاد ومقالات الكتاب والصحافيين الكبار وكان أكثرهم من الأدباء، وهل فانت المحاسنى ورفيقة ادبه وحياته محاضرة للدكتور طه حسين فى الجامعة الامريكىة أو الجامعة المصرىة أو من الاذاعة، وكان الزوجان الأديان يشاركان فى الحديث والحوار من اذاعة القاهرة مع كبار النقاد والمحدثين، وجلساتهما الاسبوعىة مع صديقهما المفكر الكبير نقولا حداد وزوجه روز أنطوان شقىة فرح أنطوان فى النادى الشرقى ما كانت تتوقف وبخاصة فى آخر أيام الاستاذ نقولا حداد اللبناى المتمصر وغيره من كبار المؤلفين والمحققين على ضفاف النيل.

وإذ كنت الصديق الموصول المودة بكثير من رواد الأدب الحديث والصحافة الأدبية وبعض الشعراء الكبار، فقد دعوت الرفيقين الاديبن الى لقاء الشاعر الخالد الذكر خليل مطران، فكنا نجتمع به فى «النادى الشرقى» أو مع شيوخ المتمصرين من اللبنايين والسوريين الذين أقاموا فى مصر منذ زمن بعيد، وفيهم أدباء وصحافيون كانوا متمرسين بفنونهم وخصائصهم ويضيق المقال بتعداد الاسماء والوجوه التى عرفها المحاسنى وزوجه بمصر منها علماء فى اللغة والفقه والقانون، ومنها لمجمعين مشهورين ومن قبل عرفاهم فى المقالات والمؤلفات فلما تعدد اللقاء كان منهم الود والإخاء.

على أنى بقيت أقرب الأصدقاء للمحاسنى فادركت فيما عرفت عنه وخبرت أنه منهموم أشد النهم فى طلب العلم بالكتب قديمها وحديثها، وطلب الخبرة والاسوة فى مخالطة أكابر العقول عربىة

وأجنبية وأشهد أنه كان فى الأمرين قليل الارتواء، فالكتب عنده ولود وكل كتاب إنما يسلمه الى عشرات غيره من الكتب الموصولة السبب بنهم فى المطالعة والاستقصاء، أما الاتصال بالفحول والحياة التى لابسوها وعاشوا فيها فقد حقق له صداقة قوية وثقة غالية ومن فضل الله ان كنت له الرفيق الأمين والدليل الذى يرشده الى ما يجهل من أحياء القاهرة، وقد أقام فيها للدكتوراه ثم لمسؤوليات ثقافية فى السفارة السورية أكثر من عشر سنوات متقطعة.

ولما غادرنا المحاسنى للمرة الاولى عام ١٩٤٨ أحسست فى حياتى اليومية بفراغ كبير لا سيما وان اندية القاهرة التى كانت تعج بنشاط الفكر والثقافة والسياسة سرعان ما همدت بعد الرحيل وطوى الموت أو الانزواء وخمول الذكر اعلاما كانت رفاقة وانصرفنا الى ما كنا بسبيله من كدح للعيشة ووفاء لبعض الصحف الصديقة التى كنا ننشر فيها سطورا أدبية بالمجان ولم ينقطع عنا بريد المحاسنى كما ان زيارته للقاهرة لم تنقطع فكان يأتينا على شوق فى اللقاء لالقاء محاضرات أو شهود مؤتمرات أو لعودة المهمات الثقافية التى كان يقوم بها، أو لمتابعة دراسة الانجال فى جامعة القاهرة ولا يكاد يهبط مصر التى أحبها وأحبته حتى يكون بيننا لقاء صديقين بل عناق قلبين ومناجاة صفيين، نلتقى على ضفاف النيل أو فى الضاحية أو عند سفح الهرم، ووقتى مبذول له فهو الصديق الصادق والخل الباذل الود بل كان سميرى ومجيرى وحامل همومى فلا يخاطبنى إلا «بالاخ المجدى».

ولقد مررت فى الحياة بتجارب وخطوب رأيت فيها اسوداد الافق
وانتجار الامل، فكان المحاسنى على البعد والقرب، صدرا حنوناً ويدا
مؤازرة، وقلباً الى المكرمات سباقاً.

ماتت أمى، فوجه المحاسنى الى قصيدة فى هذه المناسبة الحزينة
هى من أرق الشعر واصدقه قال فيها مناجياً أمه:

أيا أم، ما يومى لديك المودع
ففى كل يوم من لقاءك مرجع
مضى الدهر كالأمس الذى كان عندنا
وعيناي ما فاتتهما فيك أدمع
وللحزن زهر والمدامع ماؤه
وهذى أزهيرى بروضك تطلع
أهاجرتى فى الحلم، قد كنت قانعا
بلمحك خلف الجفن أرنو واسمع
أنام لألقى وجهك الحلو فى الكرى
فاحسب شملى بعد نأيك يجمع
فما بال أعوام تمر ولا أرى
خيالك مهما رمته حين أهجع
على مضجعى تصويرة لك علق
وفى القلب طبعات لها منك تطبع
أطيف بها فى العين والنفس مثلما
تعبد مشبوب العبادة مولع

نَموتَ يَتِيماً واحتمست مرارتي
وأنشأتني بالحزن والدار بلقع
وحين أتيج الحظ في ظل نعمة
عليها شبابي الطلق والعيش مموع
تغيّبت في درب الطويل ولوعتي
على العمر لو اني لدريك أسرع
يروح الاحبا والديار شريدة
وتأني رسالات لهم ثم ترجع
وما منك سطر في كتاب أناله
فأتلوه لهفاناً وهو يشتمع
سأرمي وراء الأفق روعي لعلها
تري روحك العليا ونحوك تنزع
وان فانت الأحلام عيني فانما
على خاطر السارى خيالك بسطم

وسافرت الى مهجري السحيق وفي الصدر زفرات وفي الحلق
غصص. فاستقبلتني لدى وصولي هناك قصيدة من المحاسني كانت
سلواي في حياة كنت أحسبها مؤذنة باسراق، فاذا الخطوب والهموم
تستبد بي والمضايقة تتسلط علي، فاغادر المهجر وبى من آلامه
الحاظة على الصدر ما يورث أشد القنوط. وفي قصيدته الوداعية قال
المحاسني:

ياصديقى، يمضى الزمان سريعاً
ويرينا من أمره تبديعاً
غزلت حفظنا العيون ولكن
طاف حزن فيهن فاض دموعاً
وتلفتُ كى أراك فغال الطيف
حتى أطال قلبى جزوعاً

الى أن قال:

ياخلىلى طول السنين، سلاماً
بردى شيق اليك نبوعاً
و «فلسطين» باسمك اهتاجها
الناس كليثٍ قد كان قبل وديعاً
ولم أكد أبلغ الوطن من ديار الهجرة والغربة، حتى استقبلنى
المحاسنى بقصيدة قال فيها:
عاد الهزار الى مرابعه
فقل السلام على سواجمه
قد كنت شط النيل أنشده
شعرى وأمرح فى مرابعه
لى فى رى الأهرام فيض هوى
قد راح يغربنى بناهه

ليس السياسة فى مزاج ديمى
لكنه أدب يرأئعه
مل جامعات الفكر عن خبرى
والمجمعى بيوم سامعه
وأنا الوثام وديع فى قلم
ذوب البيان على ودائمه
لما انتنى بجتاح غربته
بسيبل عيشٍ فى شوافعه
ناديته فأجاب عنا صدى
محزونة يحنو بدامعه

ولم يكتف المحامسى بهذا الشعور السخى يفيضه علىّ، بل حيانى
بقصيدة أخرى قال فيها:

خليلى، لك القلب الذى أنت أهله
ولو ساءت الدنيا تدر مناهله
أفديك بالعين التى هى ناظرى
وبالمال لو لانت لديك مبادلته
ولكن نفساً بين جنبيك كالتى
حوى «المتنبى» مثلها وغوائله
الى أن قال:

ونصير يبلوى ولا بد من غدّ
سيدركنا فيه من السعد عاجله

وديعُ لأنت الطود ليس تناله

زعازع مهما اشتد في الريح شامله

ولم يلبث المحاسنى ان أردف هذه التحية بجديد من تحاياها، منتهزاً
فرصة صدور كتابه «أساطير ملهمة»، جاء فيها:
إليك «أساطيرى» وما العيش والورى

لعمرى إلا كالأساطير نحيهاها

فلا تختمل عبء الحياة حقيقة

لقد نلت منها ما يسىء بيلواها

وديع أيا زين العباقر كاتباً

لك الشهرة الكبرى تعيش بنجواها

مثلا لأخلاقٍ رومز مروءة وعفة

دنيا بعد عسرك يسراها

وفى كل هذا الشعر، رغب المحاسنى فى أن يشهد لآخيه شهادة
إنصاف ليقول لمن تجنى: لقد جهلتم أمره وقدره، فدعوه لأهله
وحقه...

وكتب لى غير مرة، والحياة تقذفنى من قمة الى حضيض،
يعرض علىّ ما أشهى من مقتنياته، ويقسم بأن روحه لروحي الفداء
- وهو قسم أمين ليس فيه حنث - فكنت أجابوه بأننى لا أطمع الا
فى اخوته الباقية ومودته الغالية.

وعندما صدر لي كتاب «قضايا الفكر في الادب المعاصر»^(١) وقوبل في عقر داري بصمت وعقوق فلم يتناوله ناقد ولا غني به صحافى أو أديب وما تصدى له زميل من زملاء القلم، أو طالب من عدد طلابي القدامى، فاجأني المحاسنى العظيم بكلمة قيمة كثرت حسادى وألقت الجاحدين أحجارا.

ولما درى أن رابطة الادب الحديث تختفى بكتاب لى «فى الصحافة» جاء غير مدعو ولا مكلف، وارتجل بليغة من بليغات كلماته، فوضعنى فى منزله كالجاحظ، وغلا فى إعلاء مكانى فى نظر السامعين.

وعندما عمل الدكتور المحاسنى ملحقاً ثقافياً لسورية فى مصر، كان صديقى الامير مصطفى الشهابى سفيراً لسورية فى القاهرة، وكان ترددى على هذين الصديقين الكبيرين متواترا وبغير مواعيد مضروبة. وأخون لقلمى شرفه إن أنا كتبت كلمة حتى سمعتها من الامير الشهابى مراراً فى الدكتور زكى المحاسنى. فقد حدثنى عن أدبه وخلقه، وكفاءته ونشاطه، وسفارته الادبية والثقافية بأسخى عبارات الشناء. وقال إن علم المحاسنى وفضله ينهياننى عن معاملته كمرؤوس، فهو زميلى وأخى ويمناى المعينة.

ولست بكاظم أيضاً ما سمعته من أستاذنا وصديقنا العقاد العظيم عندما أشرت عليه بأن يكتب كلمة نقد وتعريف عن كتاب «شعر

(١) مؤلف لوديع فلسطين صغير بحجمه، كبير بمحتواه فقد عالج فيه قضايا فكرية وادبية بدقة الاداء وحقيقة الواقع والبرهان.

الحرب فى أدب العرب» ولم يكن العقاد قد اطلع يومها على هذا الكتاب. فلما قرأه، كتب مكبرا جهد المحاسنى معلما منهاجه العلمى رافعا إياه الى مكانة لائقة بحقه وقدره، ولم يكتف بهذا، بل وجه الى شكرها فياضاً لأننى أيقظت غفلته فنبهته الى هذا الكتاب النفيس واثمت له متعة ولذاذة فكرية نعم بها فى أوقات طيبة».

لقد كان المحاسنى لى أخوا صادق الوفاء مبذول الوداد عمرا أربى على ربع قرن. فلم أراه تغير لا بالمناصب التى تقلدها، ولا بالمراتب الجامعية التى أحرزها، ولا بعضويات مجامع الخلود التى دانت له - متأخرة مع الاسف الشديد - ولا بأستاذيته التى انعقد الاجماع على نسبتها إليه. فزكى المحاسنى الطالب، هو زكى المحاسنى المعلم، والمستشار والمدير، والدكتور، عضو المجمع، هو زكى المحاسنى الشاعر الكبير، هو صاحب المعدن الاصيل، والخلق النبيل.

وما كنت أنا إلا واحداً - مجرد واحد - من أجراء المحاسنى الذين صافاهم الاخاء، وبادلهم الوفاء، وأحاطهم بالناية وطوق أعناقهم بالتكريم فى شعره ونثره وعواطف قلبه.

فيا أسرة المحاسنى المفجوعة فى عميدها الكبير، تقبلونى باكياً معكم، حزينا شديد الحسرة على من كان لى أصدق من أخ حميم وأقرب من شقيق لصديق.

ولكن حزنا على المحاسنى ينبغى أن لا ينصرف الى قنوط ونواح، بل الى تخليد لذكرى هذا الأديب الانسان العظيم الذى خلف من

الادب المخطوط أوفر مما خلفه المنشور. فالوفاء تمام الوفاء للمحاسني هو أن تخرج للناس كتبه، فترى من خلال صفحاتها صورة هذا العربي الاصيل النبيل الذي أحب الضاد محبة عشق، وأغناها بشعره وملاحمه، ونقده ودرسه، وأشاد بنهضاتها ومآثرها وأعلامها وقضاياها، وكان دائما لسان صدق وحق، ولسان بيان وإحسان.
